من تراب الطريق (٥٧٠) نحن والحبو في الكون (*) (١)

فرحة الصغار بالحياة الجديدة ذات طابع كونى .. لا تستند إلى ماض أو حاضر ، ولا إلى خيال أو عقل ، وتكاد تكون خالية من أى تصور أو توقع يمكن وصفه .. فيها قدر هائل من الترحيب أو الاستبشار غير المسبب بالحياة المبتدأة ، وعدم التفات تام مطلق لغير الترحيب أو الاستبشار مصحوب بعدم اهتمام تام مطلق بكل ما فى تلك المرحلة من ضعف ونقص وقصور ؛ وبجرأة تستبعد كل حساب لما قد يجرى أو يحدث أو يكون . وذلك مهما يكن حال الصغير من جهة بدنه أو من جهة محيطه ، ومهما يبذل الكبار لحمايته أو التحوط عليه وتجنيبه المخاطر التى يتعرض لها . ويبدو هذا حاصلاً فى جميع الصغار آدميين ، وغير آدميين ؛ ومنه أنس الكبار برؤية الصغار من جنسهم ومن غير جنسهم !!

وربما كانت هذه الفرحة المصاحبة لبداية حياتنا أصلاً لرأس مالنا من الأفراح .. يبدو غامرًا وافرًا فى أول أمره ؛ ويأخذ فى التناقص والتقلص باطراد حين يقابل الأحداث والأيام فيضطر إلى اصطناع أسباب للبهجة تعينه على حمل عبء واجباته . وهذه كلها أسباب وقتية تنجح أو لا تنجح ؛ لكننا جميعًا نستعين بها ولا نخجل من هذه الاستعانة لتخفيف ما يتراكم فينا وعلينا وفيما حولنا مما نسميه الهموم والمخاوف والمخاطر والأحزان .. وينتهى الأمر بنا إلى أن يكون ما نتمناه ونخطط له ونرتبه وننفق عليه من

(*) المال ٧/ ٣/ ٢٠١٢

المال الذى أجهد أجسامنا وعقولنا فى كسبه من أشكال وصور الابتهاج والاتباع والاحتفال مجرد اصطلاحات واجتماعيات ومحاولات نحاولها كما حاولها من نحاكيهم ، ونرجو أن نحافظ بها على المكانة المفترضة وإرضاء الشغف بالمظاهر وأهلها .. وهؤلاء هم أعلانا صوتًا وأكثرنا عددًا .. وقد اعتدنا هذا الأمر حتى صار إغفاله أو الحد منه ولو للضرورة قصورًا إن لم يكن سبةً وعارًا . وهكذا يقتادنا العمر إلى أن نستبدل الافتعال والتكلف وقسوة الاعتياد عليهما بذلك القدر الهائل الخالص النقى من المرح والترحيب والاستبشار غير المسبب بحياتنا فى مطلعها وبداياتها .

نقول إن هذا ثمن النمو فى قوة الجسد والعقل ونشاطهما ؛ ومقابل الخروج المطرد من سيطرة الحيوانية بطيئة التغيير والتطور إلى رحابة ومرونة الإنسانية ، وهى وإن كانت تجذب وتتحمس لتقدم البشر فى العلم والعمل الذى يزداد مع الأيام قوة واتساعًا وسرعة ، فإنها تبتعد ابتعادًا متزايدًا عن الالتفات والاهتمام بالظواهر الكونية العاملة فى أجسادهم وعقولهم ، وقد ننسى أن هذا التقدم الرائع فى خطر شديد من رؤية الأمور كلها والكون كله بعين واحدة بشرية ابتداءً وانتهاءً ، وهى حتى الآن لم تفتح المجال أمامها لرؤية أخرى سواها فى الكون الذى ما زالت هى فى أول الطريق لمحاولة فهمه ومعرفته فهمًا ومعرفة بطريقة موضوعية بكيفية ما فى هذا الكون العظيم أو أجزائه بخلاف البشر وأرضهم .. فما زال البشر بعيدين جدًا عن وحدة الفهم والتفاهم وعن التواصل الواعى الأكيد المحقق الوافر الثرى الغنى الذى ينتشر فى كل لحظة فى نعومة ويسر بين البشر وبين الكون .. والفهم الذى تخلص من ملايين الأوهام والأحلام والافتراضات والتخمينات

والشطحات التى عاش البشر ويعيشون عليها حتى الآن فى نطاق رؤيتهم القديمة أو الحديثة الغاصة بأنواع الحول والضباب والعتامة والظلمة . وما زال الكون بعظمته وسننه وأزمنته وأحقابه وقواه وطاقاته المذهلة الهائلة لا يزال أبكم أصم بالنسبة لنا جميعًا .. ولا يكاد يرانا لأننا لا نكاد نراه ، ولا يسمعنا لأننا لا نسمعه ، ولا يعترف بوجودنا لأننا فى حياتنا لا نعترف بوجوده . نخشاه من وقت لآخر ثم ننساه ؛ وهو فى نواميسه وظواهره لا يبالى بنا ؛ ولعله ينتظر أن تخف حماقتنا وينفثئ غرورنا ونعود جميعًا إلى الفطنة لا تتركنا ولا نتركها .

(٥٧١) نحن والحبو في الكون (*) (٢)

الكون ليس قشرة أرض نحرثها أو نبنى عليها ، وليس منجم فحم أو حديد نستخرج ما فيه ، وليس طاقة وقود أو ماء أو هواء أو بحار أو كهرباء نوظفها فى خدمة أغراضنا ، وليس براحًا تمتد عليه أطماعنا وقد نحل فيه مشاكلنا . إنما هو وجودنا كله ، بكل ما فيه فى كل حركاته وسكناته وكل ما معه مما نسميه خيرًا أو شرًا . أما أحداث وعينا ولا وعينا من عواطف وميول وآمال وآلام وأحزان وأفراح وقرابات وعداوات وقرارات وأحكام وفروض وظنون ومصدقات ومعتقدات ؛ فظواهر بشرية فقط ، ليس فى مقدور أحد رفعها من بشريتها مهما اجتهد أو أصرّ أو احتجّ أو استبدل .. وهى كلها نتاج وثمار شعورنا الذى لم ينقطع قط بوحدتنا على هذه الأرض .. نأتلف ونختلف ونتصل وننفصل ونحب ونكره ونرضى ونسخط ونصافى ونعادى كل ذلك دائمًا داخل جنسنا فحسب .. ومن هذا كان ما عندنا من الاجترار والتكرار والإضافة والحذف والتبديل والتعديل وترك الماضى ثم الرجوع إليه والميل إلى التأمل والتحليل ومزج الواقع بالخيال وولعنا بالعام الكلى الذى يجاوز حدود واقعنا وخبراتنا وكثرة ما فى لغاتنا من المجردات ومشتقاتها التى تعمل فى أى غرض وفى التعامل مع ما نسميه المطلق وغير المتناهى والأزلى والأولى .

(*) المال ٨/ ٣/ ٢٠١٢

وتلك الوحدة المحاطة بالغيب الكثيف الشامل التى يشعر بها الإنسان أحيانًا عندما يتأمل انحصار الآدمى فى جنسه ونوعه ، هذا الانحصار ربما كان له أصل عميق الجذور ؛ هو استحالة تناسله تناسلاً ناجحًا مع أى جنس أو نوع آخر ؛ وهى استحالة تكاد تكون عامة .. وهذا أصل طبعى كونى لم يقو الآدميون على اختراقه أو الاحتيال عليه ، لا بالنسبة لجنسهم ولا بالنسبة لما بين الأجناس الأخرى بعضها وبعض فى محاولاتهم من قديم وللآن لتجربة تحقيق تصوراتهم وفروضهم بشأنها. ويبدو أن هذا الارتباط الأساسى بوحدة الجنس والنوع هو الذى حدد جميع أنشطة الحىّ ماديًا ومعنويًا .. فهل فى المقدور من طريق التقدم الهائل فى المعارف والمهارات والأجهزة والأدوات ، أن يمتد النشاط الفكرى والفعلى للآدمى بحيث يتفاهم ويتبادل الأفكار والمعلومات والخبرات التى تتجاوز حدود آدميته مع كائنات فى أجزاء أخرى من الكون ؛ متخطيًا عقبة الارتباط الضرورى بوحدة الجنس والنوع ؟ وهل يحتاج اجتهاد الإنسان فى ذلك المجال الكونى إلى أن يقابله اجتهاد مثله أو أقوى وأوسع إمكانات وحدودًا من الجانب الآخر ؟ لا نقول إن هذا يستحيل .. لأن شيئًا يبدو قريبا منه قد حدث فى وقوف الإنسان على معرفة واسعة دقيقة أو تكاد ، واستخدم هذه المعرفة فيما يتعلق بمخ الثدييات ومنها الإنسان .. وقد سلخ الإنسان فى ذلك عشرات السنين فى موضوع ينصب على السلوك والوظائف والأفعال وردود الأفعال لملايين الملايين من الخلايا والوصلات والناقلات والمؤثرات والمنبهات فى المخ الواحد الذى تبلغ خلاياه المليون مليون ، وتبلغ وصلاته مائتى ألف مرة عدد سكان الأرض . ومثل هذا حققه الإنسان فى معرفته واستخدامه

لعالم الذرة والطاقة الذرية .. وهو فيما يبدو كون بأسره يتغلغل فى الكون العظيم الذى نعيش على جزئية ضئيلة من جزئياته .. ويقابله فى شدة وكثرة خفاياه وأسراره وإمكاناته الهائلة التى لم تخطر من قبل على بال البشر فى هذين النوعين من المعرفة شديدة العمق والاتساع ..

لقد تجاوز الإنسان حدود تاريخه وخَطَا إلى خارج جنسه ونوعه فى طريق يزيد كثيراً فى بعده عنها دون أن يفطن ويستعد . وذلك الخروج الخطير غير المسبوق ليس من عمل ولا أمل الآدمى الفرد العادى الذى تتألف من غالبيته الجماعات الآدمية لتحيى حياتها العادية على الطريق المعتاد المطروق المنظور المفتوح أمامها الذى يناسب طموحها وتسمح به ظروف الزمان والمكان . فليس فى استطاعة غالبية تلك الجماعات أفراداً ومجتمعين أن يتصوروا ذلك الخروج وأن يسعوا إلى المغامرات والمجازفات والمخاطرات التى تتخلله وتصحبه ، وإنما هو من عمل وأمل وطموح جماعات المتعلمين الوضعيين الذين بدأوا تجييش جموعهم من أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر فى أوروبا ؛ وازداد عددهم وما تطور من إنتاجهم باستمرار حتى بلغوا منافسة الألوف أو أكثر ؛ وتشعب فى العالم كله اجتهادهم المشترك المتعاون المتضافر الدائب المنكب على البحث والتحقيق والتدقيق وتصفية المعرفة الوضعية وتحقيقها وبتعريفها للخبرات والتجارب وإعادتها وتكرارها بين وقت وآخر فى يومنا هذا حتى بدايات القرن الواحد والعشرين .

نحن والحَبْو في الكون! (*) (٣)

لقد حقق ما تقدم تلك الوثبة الهائلة الحالية التى وثبتها معرفتنا الوضعية بالكون الأصغر والكون الأكبر معًا هذه الوثبة التى أتاحت للآدميين استخدام تلك المعرفة فيما لا نهاية له من المنافع الحاصلة والمتوقعة ، وتلك الوثبة ليست من صنع أفراد بعينهم ولا من صنع جماعات معينة ؛ وإنما نتيجة جهود مستمرة لمجاميع من المتخصصين تتبادل المعلومات والأبحاث والنتائج خلال القرنين الأخيرين .. ونحن نظن أنها بداية لشىء كونى جلل فى طريقه إلى استكمال ظهوره ونموّه لتحديد اختلاف مفاهيمنا وتصوراتنا باختلاف الجماعات والأفراد .. هذا الاختلاف المبنى على تباين الأفكار العامة والمصدقات والخضوع لنفوذها .. أى أننا لسنا فقط فى الطريق إلى المزيد مما لم يخطر لنا من قبل على بال من استخدامات القوى والطاقات التى بدأنا فى التعرف عليها فعلا والتى نحن فى سبيل التعرف عليها ؛ بل نحن فى طريقنا دون أن نشعر إلى تغيير شامل يكاد يعم كل جانب من جوانب الحياة المعروفة لنا الآن لأنه يغير جميع الأسس التى يبنى عليها تفكير البشر العاديين حتى الآن كأفراد وكجماعات ، ويفتح أمامهم الباب على مصراعيه على الكون العظيم ليرتموا فى أحضانه بكلياتهم دون تحفظ .. وعندئذ لن يأسى أحد على فوات أوضاعنا الحالية أو السابقة ، ولن يذكر فواتها إلاّ كتاريخ قديم انقضى وانقضى معه نتائج قصوره وحماقاته ونواقصه ؛ وغرابة استسلام أهله

(*) المال ١٢/ ٣/ ٢٠١٢

لعواطفهم وغرائزهم وخيالهم وأوهامهم ومخاوفهم .. وربما تنظر الأجيال القادمة إذا كتب لها أن تجيء فى أمن وسلام تنظر بإشفاق على مقدار ما عشنا به وفيه نحن ومن سبقونا من التخلف والغباء والعناد بل والشقاء .

وإلى وقت قريب كنا نرى هذا ومثله أحلامًا وإسرافًا فى التصور قد يرضى خيالنا ، لكننا اليوم نشاهد ونردد إرهاصات هذا كواقع تراه العين ويحسب حسابه العقل ، ولكن بداياته التى أخذت تتوالى وتتكاثر قوية غنية . ونحن نستقبلها بشيء غير قليل من الخوف والتوجس .. ربما لأنها غريبة جدًّا وقوية بل فائقة جدًّا على كل ما يمكننا توقعه . فلم نمتص بعد سعة القفزة الهائلة ولن نمتصها إلاّ بعد أمد .. لأن الآدمى العادى الذى يبلغ تعداده بلايين البشر ؛ لم يخالط مخالطة جادة أهل المعرفة الوضعية الذين يبلغون مئات الألوف فى العالم وهم يكتشفون ويبحثون ويطورون ويتعمقون فى كل اتجاه لا يتركون شيئًا يمكن أن تصل إليه تجاربهم وأجهزتهم دائمة التحسين والتطوير ، ولكن لا يحكمون ولا يلون دست الحكم .. ولغتهم أو لغاتهم العلمية المتداولة بينهم تزداد يوماً بعد يوم تركيبًا وتعقيدًا وعسرًا وصعوبة على فهم الآدمى العادى الذى بات فى غربة بل عزلة تكاد تكون تامة عن هذا العالم الضخم من المعارف والحقائق والحسابات والاحتمالات والنظريات التى مبناها المراقبات والمشاهدات والتجارب التى لا تنقطع ولا تهدأ .. فكتلة الآدميين وجدت نفسها على نحو مفاجئ حاليًّا وفى كل مكان تائهة تمامًا كالنائم الذى يحلم أحلامًا مليئة بالعجائب والغرائب والمخاوف والمفاجآت والانفلاتات والانفعالات . وربما كان ذلك راجعا أيضا إلى أن المعرفة الوضعية تكاد تخلو من الأفكار والخواطر العامة الإنسانية التى تقبل الامتصاص والشيوع بين العاديين من الناس .. إذ تجتذب إليها النفوس

والقلوب عادة .. وربما يبقى إلى وقت قد يطول نوع من الغربة بين المعرفة الوضعية التى نتحدث عنها وبين عواطف الناس بصفة عامة ، ولكن عمر هذه المقولة إذا ظل العلم الوضعى فى نموه وتقدمه سيكون أقصر بغير حد من الدهور التى اعتدنا فيها على الاحتكام إليها فى الجليل وغير الجليل من عواطفنا وغرائزنا وسوابقنا .

وإذا كان أهل المعرفة الوضعية على كثرتهم وأهميتهم ولزومهم للحضارة الحالية لم ينجحوا نجاحاً كافياً فى اجتذاب قلوب وخيال غالبية البشر إليهم بما قدموا ويقدمون كل يوم من غزير العلم بأصولها وفروعها فى شتى أغراضها وموضوعاتها على نحو لم يسبق له من قبل مثيل .. فإنهم دون أن يشعروا أو يشعر غالب الناس ، قد تغلغلوا باجتهادهم وانكبابهم ومثابرتهم فى أعماق إنسان هذا الزمان من طريق ما ترتب على عملهم وعلمهم ومعرفتهم من المعلومات والآلات والأجهزة والمواد والمركبات والطاقات ووسائل الاتصال والتسجيل والتصوير والنقل والانتقال والحركة والحساب والإحصاء والإضاءة الظاهرة والخفية ، ومن تطوير الصناعة والزراعة والرى والصرف والبناء والهدم والاقتصاد والتجارة والطب والهندسة ، ومن رؤية ما لا تراه عين وسماع ما لا تسمعه الأذن واقتحام ما تحجبه الحوائط وما تعترضه الصخور فى السلم والحرب . فلم يعد إنسان الزمن الحالى يستطيع أن يعيش حياته خاصة أو عامة بغير ما تهيئه له بوجه أو آخر المعرفة الوضعية ، اللهم إلا إذا كان من البدو فى أعماق البادية أو من العراة الهمج فى الغابات الاستوائية !

وهذا التغلغل المرتكز على مطالب الحياة الفردية والاجتماعية ليس من السهل وقفه فضلا عن اقتلاعه . إذ لا يحول دون استمراره وانتشاره وتشعبه

نثرًا أو شعرًا أو مهادنة أو مخاصمة أو حشد وفود أو جمع مؤتمرات أو ضم صفوفه وتصنيف كتب وبحوث ومقالات أو إنفاق أموال وإزهاق أرواح وتبديد جهود وآمال وأحلام وأعمار . فى محاولة إطالة عصر انتهى من زمن ومضى دون أن يشعر أغلب الآدميين بانقضائه لبقائه حاضراً فى خيالهم !!!